مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 568-590

الشيخ أحمد التيجاني وحركية التفاعل الديني بين الجزائر و بلاد المغرب

Sheikh Ahmed Tijani and the dynamics of religious interaction between Algeria and the Maghreb

محمد قراش*

جامعة زيان عاشور (الجزائر)

البريد الالكتروني: mkerrache@yahoo.fr

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/02/03	2022/03/01	2022/04/16

الملخص: يمثل أحمد التيجاني إحدى الشخصيات الدينية في الجزائر ،تحقق في مضمار حياتها وخطابها الديني ضمن حركات التصوف ، تفاعلا ثقافيا بين الجزائر ومحيطها المغاربي، فقد عاش التيجاني بين سنتي 1737 و 1815م حركة دائبة بين الجزائر والمغرب، من عين ماضي إلى تلمسان إلى فاس التي استقر بها الى وفاته، كانت ثمرة حركتها التفاعلية جيلا من التلامذة المغاربة وتأسيس واحدة من اكبر الطرق الصوفية انتشارا في بلاد المغرب امتدت رابطتها الدينية وحافزها الروحي ومنجزها المعرفي إلى اليوم.

الكلمات المفتاحية *: التيجاني ؛ التصوف ؛ الجزائر ؛ المغرب ؛ التفاعل الثقافي.*

Abstract: Ahmed Tijani represents one of the religious figures in Algeria who investigated in the course of her life and religious discourse within the Sufism movements a cultural interaction between Algeria and its Maghreb surroundings Tijani lived between 1737 and 1815 AD a constant movement between Algeria and Morocco from Ain Madi to Tlemcen to Fez where he settled. Until his death, the fruit of her interactive movement was a generation of Moroccan students and the establishment of one of the most widespread Sufi orders in the Maghreb Its religious bondspiritual stimulus, and knowledge achievement extended to this day

Keywords*: Tijani, Sufism, Algeria, Maghreb, cultural interaction*

* **المؤلف المرسل**

مقدمة :

انبثق التصوف في مبدأ نشأته سلوكا دينيا تعبديا موسوما بطابع الزهد والتجرد مستخلصا روحية الاسلام وسيرته على عهد النبوة في وجه التوسعات السياسية والدنيوية الناشئة عبر مسار تطوري واكب تحولات المجتمع الإسلامي، ولكنه سرعان ما تحول إلى حقل معرفي يستهدف بناء المعرفة الحقة بالإسلام عن طريق رؤية الكشف والبصيرة الروحية؛ التي يرتقي إليها المؤمن من خلال انقطاعه إلى الله، وإزالة علائق البدن الحاجبة ولذلك سنجد الرازي يعتبر التصوف ثالث الطرق المؤدية إلى معرفة الله بعد طريق النقل وطريق العقل (شرف، 1991 ، ص: 29). على أن التحول الأبرز في تاريخ التصوف هو تحوله إلى مدرسة اجتماعية تكوينية عبر مؤسسة الطرق التي أخذت في الظهور ابتداء من القرن السادس الهجري على يد الشيخ عبد القادر الجيلالي (مفتاح، 2009، ص: 13).

وفي مدى القرون اللاحقة، ومع تفسخ كثير من مرتكزات النظام السياسي والاجتماعي في المجتمعات الإسلامية، وانقطاع الإمارة السياسية إلى غرائز التسلط؛ وجمع المكوس وإهمال شأن العامة؛ ملأت الطرق الصوفية مجال القيادة الروحية والاجتماعية، وأصبحت ملاذ المسلمين في كثير من البلدان والمراحل التاريخية. ولا أدل على ذلك من أنها كانت مصدرا لانبثاق بعض الدول الناشئة هنا وهناك في الغرب الإسلامي. ستتصل هاته المرحلة في الجزائر تحديدا بآخر عهد العثمانيين؛ ودخول الاستعمار، حيث نهضت قيادات الطرق الصوفية لمقاومة الغزو الاستعماري تحت لواء الجهاد الإسلامي، مشكلة حاضنة المجتمع الجزائري لبناء التضامنات التاريخية اللازمة في مواجهة العدو التاريخي حفظا للملة والوطن.

لم يكن هذا الدور التاريخي – قيادة المقاومة - موقفا عابرا ولكنه حصيلة معقدة لفاعلية الطرق الصوفية في تلك المرحلة التاريخية فقد كانت تلك الطرق تؤسس نفوذها

الروحي الاجتماعي بواسطة سلوك دقيق وعفوي في الآن نفسه من التعبئة الدينية المرسخة عبر صيانة القرآن الكريم حفظا وتلاوة، كما عبر الأوراد وجماعات الذكر والزيارات المنتظمة التي تؤطر مسلك الإيمان في ممارسة جماعية طوعية مفعمة بالولاء التام للشيخ، ليس بوصفه سلطانا ولكن لما يمثله من استحقاق القيادة الروحية الضامنة لسلامة الطريق إلى الله. وهكذا أصبحت الطريقة هي المعادل الموضوعي لحقيقة الإيمان لتتحول المعرفة الدينية هنا إلى رؤية روحية مجسدة عبر مسلك عملي ناجز يحقق الشرطين الحاسمين لاجتماعية الدين والعبادة، الأول هو حصول العبادة من خلال الجماعة، والثاني هو خضوع الجماعة لسلطة القيادة بجوهرها الأكثر نفوذا وعمقا ألا وهو القيادة الروحية. ولم يكن خطاب الطريقة - المؤطر بالحضور النوعي للقرآن العظيم - هو مجموع الأذكار والأوراد فحسب، إنما كان تشكيلات خطابية معضدة بالممارسة تلتقي في جوهر الرؤية الصوفية لمصدر المعرفة عن طريق الكشف وتتوزع في نسق شامل يؤسس مفاهيم الولاية الربانية والحقيقة وعلاقتها بالشريعة، والظاهر والباطن، والأدوار العملية والوجدانية لتلك المفاهيم في حياة المؤمنين. ولذلك فإن التصوف بما هو طريقة عملية لممارسة العبادة جماعيا في ظل القيادة الروحية ينطوي على مجال خصب من المفاهيم المعرفية الدينية التي تخترق حياة المسلمين أفرادا وجماعة كما يتجلى عبر تشكيلات خطابية فعالة ومتنوعة الأغراض والوظائف يمكن وضعها جميعا تحت عنوان الخطاب الصوفي.

لا بد لنا أن نستحضر بشكل خاص كيف أن الجزائر - قبيل العهد العثماني و خلاله - شكلت فضاء خصبا لانتشار الطرق الصوفية ونشأتها التي امتد تأثيرها وتفاعلها المرتبطان بالأدوار الكبرى في الدعوة والجهاد لمؤسسيها وقادتها الروحيين، (سعد الله، 1998، 459- 466)، إلى بلدان المغرب العربي الأخرى، المغرب، تونس وليبيا وموريتانيا فضلا عن الفضاء الافريقي والعربي، منها الشاذلية، القادرية، السنوسية،

الرحمانية، وأخيرا التيجانية في نهاية القرن الثامن عشر على يد الشيخ أحمد التيجاني الكبير الذي شكلت شخصيته الدينية بوصفه مؤسسا روحيا محور التفاعل الثقافي الديني بين الجزائر وفضائها المغاربي، وقد كان ذلك التفاعل الثقافي شاملا وعميقا كما لم تعرفه شخصية دينية جزائرية أخرى على الأقل في الفترة التاريخية نفسها، انعكس في السيرة الشخصية كما امتد في توسعات آثارها الدينية الروحية، وتجلى أخيرا في تشكيلات الخطاب الصوفي المتمحور حول سيرته ورؤيته الصوفية مما صدر عن الإتباع والخلفاء الذين اجتمعوا حوله على مدى نصف قرن من الزمن.

1 - الشيح التيجاني في الفضاء المغاربي: تفاعلات سيرة مغاربية

لم تعرف سيرة علم من التطواف في الفضاء المغاربي خاصة بين الجزائر وبلاد المغرب – فاس مثلما عرفت سيرة الشيخ أحمد التيجاني، فقد جسدت محور تفاعل كبير ترحالا وسكنا وزيارة؛ لم ينقطع الا بوفاته، ولذلك تستحق سيرته أن توصف بكونها سيرة مغاربية يؤسسها جزائري بطموحه المتقد نحو مقصوده الروحي منذ قرر الخروج من مسقط رأسه "عين ماضي "حيث ولد سنة 1150 هـ الموافق لسنة 1837 م وقد اتصل نسبه بأرومة النسب النبوي الشريف فهو " العفيف أبو العباس سيدي أحمد بن الولي الشهير والعالم الكبير الأمام القدوة النبوي الأتباع، أبى عبدا لله، سيدي محمد، الملقب بابن عمر لشدته في دينه، بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم بن أبى العبد بن سالم بن أحمد...بن أحمد بن على بن عبدا لله بن العباس بن عبدا لجبار بن إدريس بن اسحق بن على زين العابدين بن أحمد بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه، من سيدتنا فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة رضي الله عنها بنت سيد الوجود وقبلة الشهود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم" **(**مفتاح، 2009، ص: 33**)**

وقد كان النسب النبوي في ذاته أحد المقومات الأساسية في سيرة الشيخ التيجاني وفي سيرة كل الأعلام الذين يضطلعون بالمهام الروحية الاجتماعية الكبرى ضمن سياق ثقافي ينجذب في مخياله إلى الرمزية الإسلامية بكل عناصرها ومكوناتها، ولذلك لم يكتف الشيخ أحمد التيجاني بإقرار رواية سند النسب الشريف المتداول، بل قال إنه استوثق لذلك حين ما رأى النبي (ص) وسأله عن نسبه ، فأجابه بقوله: أنت ولدي حقاً، وكررها (ثلاث مرات). كان جده الرابع محمد قد قدم من الغرب الجزائري واستقر بعين ماضي وتزوج من قبيلة بني توجين، فأمه هي عائشة بنت أبي عبد الله بن السنوسي التيجاني وربما كانت تسمية الشيخ بالتيجاني – على رأي البعض – نسبة إلى هذه القبيلة، وتنزل الفضل في أجداده ، فاشتهر جده الثالث بتدريس العلم، بينما كان المختار الجد الثاني من أعيان قومه، أما والده محمد فقد عرف بالعلم والورع والعبادة، وكان مدرسا للحديث والتفسير ومشهورا بالصلابة في الدين حتى لقب بابن عمر **(**مفتاح، 2009، ص: 34**)**

كانت مقومات النسب والمكانية الاجتماعية قاعدة النشأة التي تلقاها الشيخ في بلده عين ماضي إلى غاية سن العشرين من عمره، فقد استكمل حفظ القرآن الكريم برواية نافع حفظا جيدا في سن السابعة، وتلقى مبادئ العلوم الدينية وتزوج زواجه الأول، ولكن سرعان ما ظهر نزوعه إلى الخروج من عين ماضي التي يبدو أنها لم تروي ظمأه إلى المعرفة التي يصبو إليها، فطلق زوجه ورحل إلى فاس سنة 1171 ه، فكانت هذه الرحلة الأولى التي جسرت فضاءه المغاربي الذي كان يتماهى في حقيقته مع الوعي بالوطنية الإسلامية، وبعد ما تلقى حقائق الطرق الصوفية بالمغرب من بعض أعلامها البارزين إذ " يتلقى الأوراد والاذكار أكثر مما كان يتلقى العلوم الشرعية والأدبية واللغوية "(سعد الله، 1998، ص: 10)، فكان أول من التقى الشيخ الطيب الوزاني وتبرك به وأذن له في تلقين الأوراد، كما التقى القطب أحمد الصقلي، ولقي الولي الصالح سيدي محمد بن الحسن الوانجلي وتبرك به، ولقي بفاس العارف بالله سيدي بن عبد الله معن الأندلسي... أخذ

الطريقة القادرية ثم تركها بعد حين ثم الناصرية عن الولي سيدي محمد بن عبد الله ثم تركها، ثم أخذ طريق القطب سيي أحمد الحبيب السجلماسي الصديقي ثم تركها بعد مدة... ثم أخذ عن أبي العابس... أحمد الطواش نزيل تازة ودفينها (الكتاني، 2004، ص: 197)

أخذت سيرة الشيخ في رحلاته مسارا واضحا نحو مقاصد الطريقة ولذلك سنجده ينتقل من بلد الى آخر متجها إلى أعلام الطريق دون تردد أو التباس، فلم يخلط بهذا المقصد الأسنى في حياته كلها أمرا آخر من مقاصد العلم أو الدنيا، ثم انتقل من المغرب قاصدا بلد الأبيض ناحية الصحراء حيث ضريح سيدي الشيخ، ومكث هناك خمسة أعوام مشتغلا بالقراءة والعبادة والتدريس والتلاوة. وزار خلالها بلدة عين ماضي ثم ارتحل إلى تلمسان وأقام بها مدة يدرس فيها التفسير والحديث ويعبد ربه إلى أن لاحت له بوارق الفتح ومباديه وظهر عليه من الخوارق ما دان له به شانئوه، وذلك أوائل سنة إحدى وثمانين ومائة وألف (الشريف الكتاني، 2004، ص: 197)، وقد أمضى بتلمسان حوالي سنوات خمس أيضا ولكن "تلمسان القرن الثامن لم تعد هي تلمسان القديمة، فالعثمانيون كانوا يسيطرون عليها، وأحوالها العلمية والدينية لم تعد ترضي الطموحين أمثال أحمد التيجاني، ولذلك تاقت نفسه إلى الحج " (سعد الله ،1998، ص: 10) آخر هذه الفترة سنة 1186 هـ .

لم يكن الحج حدثا عاديا في سير العلماء والعارفين ضمن حدود السياق الثقافي الذي احتضن الشيخ التيجاني، بل كان رحلة كبرى لاستكمال الارتباط بمعالم النبوة المحمدية ونهاية رحلة البحث عن الحقيقة سلوكا وعرفانا، ولذلك خرج الشيخ في الطريق إلى الحج وكان طريقا شاقا ومثمرا في فضاء التواصل والبناء الروحيين، فها هو يمر بزواوة من أرض الجزائر فيتلقى أوراد الطريقة الرحمانية على يد امحمد بن عبد الرحمن الازهري، ولكنه يتوقف في تونس مدة عام كامل مستكملا روابط السيرة المغاربية التي سيكون له بها في قادم الأيام أثرا عظيما من سيرته وطريقته على السواء، ومنها إلى

مصر انتهاء بارض الحرمين متلقيا بعشق واخلاص عن أوليائها وصلحائها، ومؤديا فريضة الحج ليعود سنة 1188 إلى تلمسان وتردد على فاس مرة ثانية في زيارة إلى المولى إدريس الأصغر، ولكنه عاد فاعتزل المدن واتجه صوب الصحراء حيث توات واستقر في أبي سمغون مدة سنوات خمس، حيث تحقق له المراد من الفتح الاكبر برؤية النبي (ص) وتلقي الإذن بتربية الخلق روحيا وكان ذلك سنة 1196 ه (سعد الله، 1998، ص: 10).

رغم عزلة الشيخ بأبي سمغون إلا أن حركته الروحية التي أخذت في الذيوع وكسب الإتباع أزعجت ولاة الأتراك في وهران فأخذوا في ملاحقته، فكان ذلك سببا ليرحل إلى فاس سنة 1211 ه رفقة أهله و خاصة أتباعه ويقرر الإقامة بها، فرحب به " السلطان سليمان وأحضره مجلسه وأعطاه دارا كبيرة وراتبا وقد اشتكى إليه التيجاني جور الترك وظلمهم..." (سعد الله،1998، ص: 510)، وفي سنة 1215 ه شرع الشيخ ببناء زاويته بفاس إذ كان قبل بنائها يلتقي أصحابه " بباب داره بفاس وتارة في بعض مساجدها الى أن... اشترى من ماله الطيب الحلال ذلك الموضع (حومة الدرداس)..." (سكيرج، 1961، ص: 20 -21)، أما وفاته فكانت " صبيحة يوم الخميس السابع عشر شوال سنة ثلاثين ومائتين وألف وحضر جنازته من لا يحصى من العلماء وصلى عليه الفقيه العلامة ابو عبد الله سيدي محمد بن براهيم الدوكالي... ودفن بزاويته (الشريف الكتاني، 2004، ص: 199)

كان احتفاء السلطان المغربي بالشيخ دلالة أخرى على المكانة التي انتهى إليها بين جمهور المسلمين وخاصتهم في بلاد المغارب؛ حتى صار بعض السلاطين يخشى على سلطانه منه، فيضيق عليه ، بينما صار البعض الآخر يرعي جانبه ويحفظ مقامه طمعا في نفوذه وبركاته، دون أن نغفل عن موقف الشيخ نفسه بين التضييق والتكريم؛ حيث لم يكن في حركته كلها ساعيا إلى ود سلطان، أو التقرب منه، بل كان تجرده وزهده وصلابته في

مقصده الروحي الذي وطن له قلوب الرعية حيثما حل، هي ما رفع قدره وجعل سلاطين الزمان بين الجزائر والمغرب يدركون خطره ويحسبون لوجوده قربا أو بعدا .

هكذا جرت سيرة الشيخ بين عين ماضي في المبدأ وفاس في المنتهى، مرورا بتلمسان والأبيض سيدي الشيخ وتونس وأبي سمغون، فضلا عن بلاد المشرق التي زارها، من مصر إلى الحرمين الشريفين، حركة دائبة وهجرة متصلة؛ لم تختلط بمطامع دنيوية قليلة أو كثيرة؛ إنما كانت جهادا في سبيل الحقيقة التي جعلها الشيخ مقصده الأسنى في نيل الاتصال بالكلمة المحمدية على الوجه الذي آمن به وصدقه يقينا ومكنه من أن يبوح به سلوكا وقولا في تأسيس الطريقة التيجانية، وهي الطريقة التي مهما كان اختلاف الموقف حولها ولاء أو انكارا، ما كان لها لتستوي في منازل الوجود الروحي والتاريخي الذي احتضنته ربوع الجزائر كأكبر طريقة انتشارا وتفاعلا في الفضاء المغاربي لولا تلك السيرة الجهادية المضنية التي خاضها الشيخ أحمد التيجاني بكل يقين وصبر حتى انتهى بها إلى ما أراد.

لقد كان أحمد التيجاني جزائريا في موطن النشأة التربية والمآل الاجتماعي والروحي، ولكنه تمكن بفضل جهاده الروحي من أن يصنع من رحلته في البحث عن طريق الوصول إلى الله سيرة متحركة ومؤثرة في الفضاء المغاربي الأوسع بأن احتضن في هجرته الطويلة حواضر العلم والعرفان في بلاد المغرب من الجزائر إلى فاس إلى تونس، في ملتقى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكان ذاك التأثير موردا من فضائله التي شهد بها معاصروه من المريدين والمحققين إذ كان " شديد الحزم في الدين عالي الهمة فيه شديد الحرص على مهماته بعد القيام بواجباته واقفا على الحدود والأحكام غاية حاثا الوقوف عليها يقول كثيرا: (أفضل الأذكار ذكر الله عند أمره ونهيه)، حافظا لحقوق الله مراعيا لها، شديد التحرز والورع في الدين كثير التحفظ والتحرز للأحوط... لا يحب التأويلات ولا يميل الى ارتكاب الرخص... يعاني الكمالات ويسابق الغايات ويسارع الى

الخيرات... يعظم أمر الشرع العزيز، ويجل أمر النبي(ص) أن يخالف..." (حرازم، 2018، ص: 59)

2 - التيجاني والطريقة : تفاعلات المنجز الروحي في الفضاء المغاربي :

لم تختلف سيرة الطريقة عن سيرة الحياة لدى الشيخ أحمد التيجاني، فهجرته بين اقطار المغرب الكبير التي جمعته بحواضر علمية وروحية مختلفة انطوت في حركتها الداخلية على رحلة باطنية اختبرها الشيخ في تواصله مع العارفين والأولياء، وفي تلقيه لأسرار الطرق الصوفية وأسرارها التي كانت منتشرة في الفضاء المغاربي ولذلك شكل تكوينه الصوفي سيرة متميزة في الاجتهاد الروحي نحو هدفه الأسمى الذي سعى نحوه بكل يقين ، وربما لم يتح لأكثر العارفين في تلك الفترة التاريخية خوض مثل هذه التجربة الاستثنائية إذ جرت العادة في مسلكهم أن يجتهدوا في اكتساب تعاليم أحد الطرق الصوفية الكبرى بالوصول الى أعلامها الأحياء والأخذ عنهم مباشرة. أما الترقي عبر الطرق المتعددة لتأسيس طريقة جديدة فهو تجربة روحية أصيلة ومتقدة بالاجتهاد، لم تحصل الا مع القلائل من الأولياء والعارفين.

وإذا تتبعنا مسار الارتقاء الروحي في مدى ربع قرن من الزمن يمكننا أن نعاين الحلقات الدقيقة في مسار ذلك التكوين الشاق، إذ لم يترك الشيخ عارفا من أصحاب الطريق الا وقصده اجتهادا في التحصيل الروحي. فقد " أخذ القادرية عن مقدمها في فاس الشيخ محمد بن حسن، والطيبية عن مؤسسها مولاي الطيب نفسه، والرحمانية عن مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري والناصرية عن الشيخ محمد بن عبد الله التزاني، والحبيبية عن المقدم أحمد الحبيب الصديقي، كما أخذ المدنية عن محمد بن عبد الكريم السمان في المدينة المنورة، والخلوتية عن محمود الكردي العراقي في القاهرة، وأخذ عن شيوخ آخرين طريقتهم مثل أحمد الطواشي بتازة وعبد الصمد البوجوري بتونس، وأحمد بن عبد الله الهندي بمكة المكرمة..."(سعد الله، 1998، ص: 193)

هكذا نلاحظ أن التيجاني قد جمع في سيرته الروحية أهم الطرق التي كانت سائدة في الجزائر وفي بلاد المغرب وصاغ خلاصاتها في تجربته الصوفية ليكون هو بذاته محور تفاعل ديني لم يحصل لغيره في الفضاء المغاربي، ولكنه لم يتوقف عند هذا المطاف بل حول تجربته المتفاعلة إلى مسار تأسيسي مر عبر حلقات ثلاث: ظهرت ملامحه الأولى حين اعتزم الخروج الى الحج وهو بتلمسان سنة1181هـ، وسمى أتباعه ذلك الارهاص الأول **بالفتح الاصغر**، وبعد عودته من الحج واستكمال زياراته رحل الى الصحراء واستقر بأبي سمغون سنة 1196 هـ فتلقى **الفتح الكبير**" وعمره اذ ذاك حوالي خمسة واربعين عاما والمقصود بالفتح الكبير عندهم هو رؤية الرسول(ص) الذي أذن له في تقين الخلق بعد أن كان فارا من ملاقاتهم ..." (سعد الله، 1998، ص: 511)

انتهى الشيخ التيجاني في هذه المرحلة الثانية – الفتح الكبير - من التلقي الصوفي الى مقامات باطنية راقية في علاقته بالحقيقة المحمدية إذ توصل إلى رؤية الرسول (ص) " يقظة لا مناما وأخذ الطريقة منه مشافهة و أذن له في تربية الخلق على العموم والإطلاق ...وأمره أن يترك كل طريق أخذه عن مشايخ الطرق الصوفية اكتفاء بما أخذه عنه (ص)، وعين له الورد الذي يلقنه مريديه، وهو: الاستغفار والصلاة على النبي(ص) ،أما المرحلة الأخيرة من التلقي فقد استكملها بعد أربع سنوات إذ" كمل له الورد بسورة الإخلاص على رأس المائة..." (سعد الله، 1998، ص: 509) وتدعى هذه المرحلة الأخير من التلقي **بالفتح الأكبر** .

إذا كان مسار التلقي الصوفي يشكل بحق مسارا تفاعليا في الفضاء المغاربي على محور شخصية دينية جزائرية فإن هذا التفاعل لم يتحقق فقط **على مستوى التأسيس الروحي** الذي مارسه الشيخ إنما يتحقق ايضا على **مستوى الانتشار** الذي عرفته الطريقة بعد التأسيس في حياة المؤسس ذاتها، ولم يكن حدث الانتشار الذي عرفته الطريقة مألوفا بالنسبة الى سياقات تاريخية وثقافية زاخرة بالطرق، مشتتة بتعدد الولاءات الدينية مشحونة

بالضغوط السياسية السلطوية، وقد علمنا كيف حارب الاتراك نشاط الشيخ الروحي وضيقوا عليه . وقد قال الشيخ مناشو، أحد علماء الزيتونة، " إن طريقته - أي الشيخ التيجاني – لم تنشر بواسطة الملوك بل بواسطة العلماء" (مفتاح، 2009، ص: 188)، ولذلك انتبه الباحثون الى خاصيتها الحركية المميزة التي هيأتها إلى سرعة الانتشار عبر الفضاء المغربي أولا ثم الافريقي ثانيا. فهي " ليست طريقة ساكنة متعبدة مثل بعض الطرق الروحية المجردة وليست من الطريقة المتحركة التي تواجه الانتصارات والهزائم ولكنها كانت من الطرق الساكنة والمتحركة في نفس الوقت والعاملة ضمن مساحة جغرافية عريضة..." (سعد الله، 1998، ج4، ص: 192)

لقد درج محققو التصوف إلى تصنيف طرقه في مدرستين كبيرتين إحداهما عملية " اتخذت من المساجد والزوايا منابر لدعوتها وجعلت من مجالسها معاهد لتخريج الرجال بعد تكوينهم فلم تهتم اهتماما كبيرا بوضع الكتب الكبيرة...وقد عبر عن موقف هذه المدرسة أبو الحسن الشاذلي: حين سئل لم لا تضع الكتب في الدلالة على الله وعلى يوم القيامة ؟ فأجاب : كتبي اصحابي. وثانيهما نظرية علمية " اتخذت من الكتب والرسائل منابر لشرح أهدافها وعلومها.." (مفتاح، 2009، ص: 129).

يستغني أعلام المدرسة العملية بالقرآن الكريم والسنة النبوية حفظا وتعليما عن الكتب التنظيرية ومن أبرز رجالها الحسن البصري ومعروف الكرخي وجعفر الصادق والجنيد والبسطامي وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وأبو مدين شعيب وغيرهم، أما المدرسة النظرية العلمية فقد برز من اعلامها الحارث المحاسبي والسراج الطوسي وعبد الكريم القشيري وابن عربي والشعراني وغيرهم .وكان الشيخ أحمد التجاني من اصحاب المدرسة الأولى العملية " التي لم يؤلف رجالها كتبا كثيرة وإنما الفوا قلوب الآلاف من العباد على التعاون على البر و التقوى والتحقق بمعاني لا اله الا الله واكدت المدرسة التيجانية بالخصوص على الشطر (محمد رسول الله)..." (مفتاح، 2009، ص: 129)

هكذا تحقق – بواسطة تأليف قلوب الرجال - تفاعل الانتشار الذي عرفته الطريقة التيجانية في حياة الشيخ عبر خلفائه في الجيل الأول؛ الذين تمكنوا من توطين الطريقة وترسيخ تعاليمها في الفضاء المغاربي، فكان منهم في الجزائر العدد الجم الذي توزع في ربوع الوطن كله، فجنوبا " محمد بن المشري السائحي (ت1224)، الحاج علي التماسيني (ت1260)، محمد بن الساسي لقماري، محمد بن قويدر العبدلاوي (ت 1292) و**غربا:** الطاهر ابو طيبة التلمساني (ت 1292) – محمد المازوني**.** أما **شرقا:** ابو حفص عمر بن الكشكاش**.** و**بالوسط:** عبد القادر المشرفي - المختار بن الطالب... أبو مدين وابو عبدالله زعنون، الحاج عبد الرحمن بن الحاج ناجي – احمد بن عساكر الجزائري.

أما في المغرب الأقصى فكان خليفته الأول هو علي حرازم (ت 1217) صاحب كتاب الجواهر وابنه أبو يعزى (ت1290)، محمد الغالي (ت 1244)، الطيب السفياني (ت1259)...عبد الوهاب بن الاحمر (ت 1269) ومحمد بن أبي نصر الفاسي (ت1273)، الحاج الكبير الحلو (ت 1277)، أحمد بناني الفاسي وأخوه أحمد كلا (ت 1306) و محمد الكنسوسي المراكشي (ت 1294) و محمد بلقاسم بصري المكناسي (ت 1294**).**

وجهة الغرب أيضا -في موريتانيا- حمل الطريقة الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي (ت 1254)، و مولود فال (ت1267)، محمد بن عبد الله العلوي (ت 1269) ومحمد الغالي المغرب (ت 1244)، ثم عمر بن سعيد الفوتي مؤلف كتاب الرماح (ت1282)، والطاهر بوطيبة التلمساني (ت 1242) فضلا عن الشريف محمد الأخضر ... مؤسس فرع التيجانية بمالي وما جاورها. (مفتاح، 2009، ص: 174-175).

وفي تونس انتشرت الطريقة بواسطة الاتصالات بين منطقة وادي سوف بالشرق الجزائري والقطر التونسي فكان أول الخلفاء الشيخ محمود التونسي (ت 1230) وتعرف التونسيون على الطريقة و على شيخها فرحل الطاهر بن عبد الصادق القماري (ت

1266) إلى توزر بالجنوب التونسي، وعلى يديه انتشرت الطريق انتشارا واسعا، وشيئا فشيئا منذ أوائل القرن الثالث عشر هجري بدأت تظهر الطرقة التيجانية في القطر التونسي فكان من اعلامها " الشيخ المناعي التونسي الذي قدم على الشيخ بفاس فأخذ عنه وأجازه ... ومن الشعراء محمود قباد (ت1288) لكن أشهرهم على الاطلاق هو مفتي الديار التونسية العلامة ابراهيم الرياحي (ت 1260) "(مفتاح، 2009، ص: 186) الذي التقى بتونس الشيخ علي حرازم الفاسي فأخذ عنه الطريقة ثم التقى - أثناء زيارته المغرب سنة 1804، الشيخ أحمد التيجاني وتلقى عنه مباشرة فأسس زاوية للطريقة بتونس (الرياحي، 1990، ص:08) وارتفع على يديه صرح التيجانية لما اختص به من فضل العلم والاجتهاد والفتوى وشهد المحققون له بذلك الفضل في نشر الطريقة هو ومن تبعه عليها من أعلام القطر التونسي إذ " تداول سنده من بعده من شيوخ الفتوى والقضاء بالمذهبين المالكي والحنفي ما يزيد على أربعين من آل بيرم وآل اليفر وآل الخوجة وآل الشاهد وآل الشريف وآل حيسين وآل جعيط وسواهم جمهور عظيم من أئمة ومدرسين وأمراء ووزراء وسراة. ومن لم يدخل في حضرتهم لم يتوقف عن الاعتراف بالفضل لهذا الإمام (الرياحي، 1990، ص: 188- 199).

تمثل شبكة هؤلاء الخلفاء الجيل الأول من الإتباع الذين تلقوا مباشرة عن الشيخ أو عن أحد تلامذته المباشرين، وأغلبهم قد التحق بحظرة الشيخ وسمع منه وتولى في حياته بعض مهام الدعوة إلى الله أو التزم صحبته وكانت له قصة اجتهاد في الالتحاق بالشيخ والفوز برفقته ورضاه، ولكن امتداد حركة الطريقة لم يتوقف في حياة الشيح ضمن حدود الفضاء المغاربي بل امتد الى اقطار اسلامية اخرى. **ففي مصر** حمل لواء الطريقة محمد بن عبد الواحد البناني بالقاهرة، و الحاج مفضل السقاط بقنا (ت 1280) وأبو محمد هاشم العلوي (ت 1315) بالقاهرة ، محمد الحافظ التيجاني المصري (ت 1398)

ومن **السودان:** عبد المنعم بن أحمد بن سلامة المصري (ت 1354)، وعثمان الفلاني الاكناري السوداني و محمد السالك الوداني السوداني، وعلى كثرة من حمل الطريقة التيجانية من الخلفاء والاتباع في اقطار العالم الاسلامي خاصة بلاد المغرب وافريقيا ذكر بعض المحققين في سيرهم ما نصه :" وليعلم الواقف على هذه التراجم أنني لم أذكر الا أقل القيل منهم ولم آت بما اختص به كل واحد منهم من المزايا...فإن سيدنا رضي الله عنه لم يخرج من الدنيا حتى ملأ البسيطة بأصحابه... ولا يوجد مكان شرقا وغربا خاليا كما يشهد بذلك تواتر الاخبار (سكيرج، 1961، ص: 04).

لقد أفضى انتشار التيجانية عبر أصحاب الشيخ إلى ظهور كثير من أعمال السير والتراجم التي تدون مأثرهم وأعمالهم وفضلهم، فضلا عما تحققه من مهمة حفظ اسانيد الطريقة جيلا بعد جيل، فألف التيجاني بن بابا بن أحمد " منية المريد " وهي قصيدة مشهورة عن اعلام التيجانية أعاد شرحها العربي بن السايح (ت 1309) في كتابه " بغية المستفيد على منية المريد "(التجاني، 2005).

أما أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنقيطي فألف سنة 1285 هـ كتابه "روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر أهل الطريقة" ترجم فيه لأربعين رجلا، عشرين ممن أخذوا عن الشيخ مباشرة وعشرين أخذوا عنه بالواسطة، بينما ألف العلامة احمد سكيرج المغربي سنة 1325 كتابه المعروف " كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ أحمد التيجاني من الأصحاب"(النظيفي، 1984)، ثم ألف كتبا ثانيا عنوانه "رفع النقاب" ذكر فيه مئات من العلماء والفضلاء والصلحاء والشعراء من رجال الطريقة التيجانية ثم ألف الفقيه الحجوجي المغربي كتابا في تسع مجلدات سماه "اتحاف اهل المراتب العرفانية بذكر بعض رجال الطريقة التيجانية" وله كتابان آخران هما "نخبة الاتحاف في ذكر من منحوا من الشيخ التيجاني بجميل الأوصاف" نظمه في أجزاء ثلاثة، والثاني عنوانه "فتح الملك العلام في تراجم علماء الطريقة التيجانية الاعلام" في مجلدين كما ألف محمد السيد التيجاني

المصري كتاب" غاية الأماني في مناقب وكرامات أصحاب الشيخ التيجاني" وألف عتيق الكاشاني في تراجمهم "الفيض الهامع في تراجم أهل السر الجامع" سنة 1375هـ (مفتاح، 2009، ص: 180)

لا ترتبط أهمية هذه الأعمال من التراجم في كثرة الإعلام الذين كانوا من "جلة العلماء أو من أعيان أقوامهم وأفاضلهم، فمنهم الكثير من رجال الإفتاء وعدد من الرؤساء والبايات والحكام وكثير جدا من أهل الفقه والأدب. (مفتاح، 2009، ص: 180) يتوزع انتماؤهم بين بلدان المغرب الكبير متحلقين حول المنبع المعرفي الثقافي الجزائري ممثلا في الطريقة، بل يتجاوزونها إلى إفريقيا وبلاد المشرق، ولكنها تقدم دليلا آخر على التفاعل الثقافي الديني الذي رسخته التيجانية بين الجزائر وفضاءها المغاربي حين اجتمع كثير من المحققين من خارج الجزائر على حفظ تراث التيجانية وإعلاء مكانتها الروحية والاجتماعية مشكلين بذلك ظاهرة ثقافية دينية مغاربية لا تغيب فيها محورية المركز المؤسس مهما توسعت الامتدادات التي جسدها الأتباع في المغرب والمشرق وافريقيا على حد سواء ذلك المركز الذي تحول تدريجيا إلى خلافة عامة منبعها المكان الأول الذي شهد ميلاد الشيخ احمد التيجاني، بلدة عين ماضي.

3 - سيرة التيجاني وتفاعلات الخطاب الصوفي : قصائد المناقب والمديح

شكلت أعمال التراجم المذكورة مدونة صوفية شاهدة على درجة التفاعل الذي أحدثته سيرة الشيخ أحمد التيجاني في الفضاء المغاربي، وفضلا عن بعدها التاريخي التوثيقي انطوت تلك الاعمال على مثابة أدبية لا تخطئها العين في استنادها الى منظومات شعرية وقصائد مديح بالغة الجودة الفنية يمكن مقاربتها بوصفها تجليا تواصليا أدبيا اشراقيا للأثر العرفاني الذي خلفه الشيخ التيجاني في محيطه المغاربي، وربما تستدعي تلك النصوص عملا تحليليا واسعا يتناول فرادتها الفنية وقيمتها العرفانية في سياق الخطاب الصوفي الجزائري– المغاربي ولكن مهمة البحث في هذا المقام تسمح في حدود

أولية بإبراز القيم الكلية لتلك النصوص إذ يمكن أولا من تحديد أجناسها الأدبية ضمن قسمين الأول منظومات سير و مناقب صوفية، والثاني قصائد في غرض المديح الصوفي.

تنطوي بعض تلك النصوص على تداخل بين الشعر وبين فن التراجم نفسه حيث جاءت بعض سيرة الشيخ أحمد التيجاني و تراجم أصحابه في قالب النظم كما هو الشأن في " منية المريد " لمحمد العربي السائح الشرقي العمري و "الياقوتة الفريدة " لمحمد فتحا بن عبد الواحد الفاسي النظيفي أما قصائد المديح التي تغنت بحب الشيخ ومناقبه فقد وردت في ثنايا التراجم عموما أو في شروح النظم وهي من الغزارة بحيث يمكن أن تفرد بديوان كامل ولكن الصورة الكلية التي نسعى إلى تشخيصها تتطلب التعريف بالمنظومتين أولا ثم إضاءة الحركة الفنية العرفانية في قصائد المديح الصوفي ثانيا وسيبقى الغرض المركزي من كل ذلك إنما هو تقديم تلك الآثار بوصفها معالم دالة على حقيقة التفاعل الديني الثقافي الذي شكلت سيرة الشيخ التيجاني حافزه التاريخي الديني:

3 – 1 الياقوتة الفريدة :

تشكل هذه المنظومة مدونة كاملة في السيرة والطريقة معا وقد قسمها صاحبها محمد فتحا بن عبد الواحد السوسي النظيفي المغربي الى مقدمة في الحمد والتصلية ثم فصول موزعة على قضايا الطريقة التيجانية وإن كانت غير متوازنة في عدد ابياتها ولكنها جرت على نظم واحد وقافية واحدة تأكيدا على دقة النظم وصرامته وأولها: (النظيفي ، ج1 ، ص : 18)

بدأت بسم الله والحمد إذ هدى ... بمحض الرضا والفضل للأحمدية

أصلي على النبي واسمي قصيدتي ... ياقوتة فريدة في طريقة

تنمو القصيدة عبر فصول متكاملة، فصل في مناقب الشيخ التيجاني (النظيفي، ج1 ، ص: 25 -27)

هو البرزخ الأعلى ورأس الوسائل...وينبوع رحمة وبحر الحقيقة

فبالختم والمكتوم سمي عندهم ... لختم ولاية وكتمان رتبة

وفصل في كراماته: (النظيفي، ج1 ، ص: 62)

كراماته كالبحر والقطر والحصى ... وكم له من إبراء أعضل علة

وفصل في فضل الطريقة الأحمدية: (النظيفي، ج1، ص : 108- 109)

فقم واجتهد وجد في الأحمدية ... ودع كل ما بلهي عن الاحمدية

على نفسك الأمارة ابك تحسرا ... إذا لم تكن من أهلها بالمشيئة

وهكذا تتغير موضوعات الفصول الى الآداب المطلوبة من الإخوان، النهي عن إضاعة المال، محبة الحق وأهله، التحذير من الرئاسة، السبحة، شروط المقدم، شروط الدخول في الأحمدية، شروط الطهارة المائية، شروط الورد الأحمدي، أركان الورد الأحمدي... فضل الصلاة على النبي (ص)، وعموما تقع المنظومة في أربعة وعشرين فصلا، قام المؤلف بشرحها في كتاب "الدرة الخريدة في شرح الياقوتة الفريدة "، تناول فيه المفاهيم والمعاني الصوفية الواردة في المنظومة على نحو الايجاز أو الإضمار حيث يرتقي الشرح الى تنظير دقيق في العرفان الصوفي عن حقيقة الولاية وما تمثله في رتب الوجود والعلاقة مع الحقيقة المحمدية ففي وصفه بالبرزخ الأعلى مثلا يقول: " فسيدنا رضي الله عنه هو الحاجز بين الحقيق المحمدية وبين العوالم كلها صامتها وناطقها وساكنها ومتحركها فيما يصل إليها من الفيوضات والتجليات والمعارف والأسرار والرحمات..." (النظيفي ،ج1 ،ص: 25)

وهكذا تتحول شروح هذه المنظومات إلى متون في التصوف النظري الذي يلتقي مع نصوص مركزية مثل أعمال ابن عربي وهذا في ذاته توسع آخر ينجزه الأثر العرفاني الشيخ أحمد التيجاني في مسار تفاعل المعرفة والخطاب على حد سواء.

3 – 2 منية المريد :

تتفق "منية المريد" مع "الياقوتة الفريدة" غرضا وموضوعا فقد نظمها صاحبها التيجاني ابن بابا العلوي المغربي وهو اسم " سماه به والده...تبركا باسم سيدنا الشيخ (احد التيجاني) رضي الله عنه " (السملالي، 1993، ج4، ص: 84)، وقد نظم قصيدته بزاوية عين ماضي ايام إقامته بها بأمر الشيخ محمد الحبيب (السملالي، 1993، ج4، ص: 85) وأبان فيها مكانة الطريقة التيجانية وسيرة الشيخ التيجاني ومناقبه وافتتحها بعد البسملة والتصلية بقوله: (التجاني، 2005، ص: 120)

قال ابن بابا العلوي نسبه ... المغربي المالكي مذهبه

ثم قدم بالحمد والتمجيد للنبي وشيخه التيجاني: (التجاني، 2005، ص: 125- 147)

الحمدلله الجاعل الأولياء...ورثة الكمل الأنبياء

والجاعل النبي خير الأنبياء...وشيخنا أحمد خير الأوليا

ثم على الفاتح ما قد اغلقا ...ومن به ختم من قد سبقا

ازكى صلاة وسلام وعلى ...اصحابه وآله ذوي العلى

ثم تمضي المدونة بعد التمجيد لطريقة وصاحبها فتتناول التعريف بنسبه: (التجاني، 2005، ص: 164)

ما انجبت خرد من الغواني ... في كل ما مضى من الزمان

كمثل أم شيخنا الرباني ... عائشة الطاهرة الحصان

من بعلها ذي الشرف الطيني ... والشرف العلمي الديني

القسم الثاني يتعلق بالورد الصوفي: (التجاني، 2005، ص: 319)

أخذ هذا الورد شيخنا الأمام... عن الرسول المصطفى خير الأنام

أما أركان الورد فهي: (التجاني، 2005، ص: 410)

أركانه استغفر الله مائة ... وصل مثلها على خير الفئة

وكون ذي الصلاة بالفردية ... مفضل برتب عديدة

وهللن مائة ولتختم ... بنسبة الارسال للمعظم

ثم يورد شروط المقدم ، وقت الوظيفة (وردي النهار والليل)، حضرة يوم الجمعة و بيان فضل الياقوتة الفريدة وهي صلاة الفاتح: (التجاني، 2005 ، ص: 439 - 440)

أما فضل صلاة الفاتح الحسنى التي ... يدهون بالياقوتة الفريدة

نفضلها على مراتب انقسم ... وجلها عن الخلائق انكتم

ورغم اشتراكهما في جودة الصياغة ودقتها الا أن "منية المريد "تختلف في مستوى النظم في بتعدد قوافيها وقد تناولها بالشرح محمد العربي السائح فوقف على تفاصيل دلالات مصطلحاتها ومفاهيمها الصوفية مستشهدا بالقرآن الكريم والسنة النبوية وبآثار العارفين والمفسرين مما يلبي حاجة المريد والباحث إلى الأغراض العلمية والعرفانية التي تنطوي عليه المنظومة وقال في تقريضها وبيان سبب الاقدام على شرحها: " ولما سرحت في رياض كلماتها المونقة النظر وأجلت بين حياض معانيها الغدقة طرف الفكر علمت علم يقين أنها المنية التي كنت منذ أزمان أترصد طالعها... وأترقب فقرت بها ولله الحمد مني كل عين... غير أن بعض السادات الاجلاء والسراة الاخلاء... ألح علي... في وضع تعليق عليها يكون كالتتمات والتكملات لكلماتها الجامعة المفيدة..." (التجاني، 2005، ص: 08 – 09)

ويستفيض الشارح في تحليل مواد المنظومة واصطلاحاتها الصوفية لغة وعرفا استنادا إلى نصوص القرآن وآثار السيرة النبوية وأقوال العلماء العارفين في كل اختصاص ذي صلة ففي تعريفه بمفهوم الشيخ الصوفي يعتبر أن الشيوخ ثلاثة: شيخ التعليم وشروطه التحصيل والقدرة والإنصاف في القبول والرد، شيخ التربية ،وشروطه علم المعاملات والبصيرة والتجربة، وشيخ الترقية وشروطه البصيرة، والنور التام والهمة العالية" ولا يشك منصف في اجتماع الثلاثة في شيخنا حسبما يحققه النظر في سيرته

والاستقصاء للأخبار المتعلقة بأحواله في دلالته على الله تعالى..."(التجاني، 2005، ص: 147)

3- 3 قصيدة المديح الصوفي:

تشكل هذه القصيدة مادة غزيرة لتجليات التفاعل الثقافي الأدبي والصوفي الذي أثارته سيرة الشيخ وطريقته لدى شعراء مغاربة تؤكد بعض عيناتها المقدمة – من نصوص بالغة الكثرة - دليلا واضحا على عمق الاستجابة الفنية الروحية التي أحاطت بعمل الشيخ وخلقت من حوله شعرية متميزة نعرض منها مطالع قصائد خمس في موضوعات مختلفة تلتقي في غرض المديح الصوفي .يقول العلامة الحاج سكيرج في تعظيم المقام الروحي للشيخ: (سكيرج ،1961 ، ص:9)

يا مصطفى من سائر الأكوان ... يا من به قد لاذت الثقلان

سبحان من أعطاك فضلا كاملا ... وأجل مرقاك الرفيع الشان

من بحر جودك يستعير ذوو النهى ... مددا يخص به من المنان

لا سيما قطب العوالم كلها ... مولاي أحمد شيخنا التيجاني

يقول الحاج الطالب اللبان في ضريح الشيخ: (سكيرج ،1961 ، ص: 25)

هذا ضريح الشفا لمن يشاهده ... وروض من يتمنى الروح والرغدا

بشرى لداخله حبا بميسرة ... وبالأمان لدى الهول العظيم غدا

يا من هنا ذكر المولى وعظمه ... لك الهنا وبالأمان فاشكر الصمدا

وقال سيدي محمد غيلان الوزاني في الزاوية: (سكيرج ،1961 ، ص: 28)

هذي مطالع أنوار السعادات ... أم ذي حدائق أزهار الكمـــــــالات

أم ذي مرابع قوم لاح فضلهم ... شرقا وغربا على كل البريات

أم ذا المقام الذي تزكو الصلاة به ... ويحصل القطع في أجر العبادات

ولبعض الأدباء هذه القصيدة في الشوق الى حضرة الشيخ: (سكيرج،1961، ص: 37)

حب الأحبة بالغرام عناني ... وبذكرهم حادي الحمى غناني

فتوقدت نيران شوقي في الحشا ... وغدوت لم امسك هوى بعناني

ومتى أرى تاج المحبة أحمدا ... يسقى فؤادي من صفي لبان

وقال ابراهيم الرياحي في مدح الشيخ: (ابراهيم الرياحي، 1990، ص: 94)

أترى ممرضي درى بسقامي ... فهي إن ترضه أعز مرامي

ما عدا هجره فأجماد صبري ... ما استطاعت لحملها من قيام

كيف يا سيدي وأنت مرادي ... وعلى من سواك ألف سلام

ليس هذا الا غيظا من فيض جادت به قرائح الشعراء من بلاد المغرب خاصة في مدح الشيخ التيجاني والتغني بحبه والشوق اليه تورده هنا شاهدا على قوة التمركز الصوفي الوجداني الذي انطوت عليه سيرة الشيخ حتى أصبحت محور المديح الصوفي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين في الفضاء المغاربي انبثقت عنه مدونة من القصائد الشعرية التي جمعت بين مزيتين في تركيبة الخطاب الصوفي ، الأولى هي قوة المضمون العرفاني حيث تناولت منعطفات من تجربة الصوفية في الولاء والحب والشوق والتسليم والشوق إلى الشيخ والإعلاء لمناقبه بوصفها المثل الأعلى الذي يسعى المريد إلى سلوك طريقه حضوريا أو وجدانيا أما الثانية فهي جودة العبارة الفنية ورشاقة الإيقاع الموسيقي الذي يشف حقا عن روحية شاعرية مفعمة بالاندماج العاطفي والمشاركة الفذة لتجارب الحب والولاء الصوفيين فكأن هذه القصائد تسابيح في محراب الصلاة أو دعاء في سكينة ليل و لعل التحليل الذي يقتضي ان تخضع له هذا التجارب يستدعي مقاما آخر من الدراسة والبحث يسمح لنا باستجلاء كل القيم العرفانية والفنية التي ارتبطت بآثار وفاعلية الشيخ التيجاني وطريقته منذ تأسيسها والى اليوم.

خاتمة:

لا عجب أن هذا التمركز الديني الصوفي للشيخ التيجاني يستكمل أدوار التفاعل الثقافي الذي أحدثه بين الجزائر وبلاد المغرب الأخرى بدء بسيرته المغاربية ثم عبر طريقته الأحمدية التي شكلت خلاصة الطرق في السياق المغاربي تلقيا وأورادا، وانتهت الى تأسيس أكبر طريقة صوفية توسعا وامتدادا، وأخير عبر أجناس من الخطاب الصوفي ممثلا في المناقب والمنظومات وقصائد المديح التي دارت حول سيرته وطريقته ومناقبه وزاويته، أنشأها مغاربة من الجزائر ومن المغرب الأقصى ومن تونس و موريتانيا، التحقوا بالشيخ تلامذة ومريدين عبر الفضاء الاسلامي العرفاني فضلا عن نصوص أخرى لشعراء من المشرق لم يسمح المقام بالتطرق إليها، وكلها تصنع شبكة التفاعل الثقافي في مجال المعرفة والخطاب الدينيين اللذين تمظهرا في الدور المركزي لشخصية صوفية جزائرية.

يسمح لنا الدور الذي جسدته شخصية الشيخ التيجاني باستثمار أوسع لمنجزات تراثنا الصوفي الجزائري في مستوى تفاعله ضمن فضائه المغاربي قديما وحديثا ذلك أن هذه الشخصية الدينية عاشت في مفترق حاسم أواخر الحكم العثماني، وتمكنت باجتهادها الروحي الفذ أن تصنع حدث دينيا استثنائيا قائما على فاعلية الطريقة الصوفية حيث تمكن من تحقيق توسعات دينية – اجتماعية عابرة لحدود وطنه الجزائر متمركزة على قوة السلوك والولاء الدينيين لتصبح تلك الطريقة بعد وفاته خلافة دينية صوفية عامة على مريديها في أصقاع العالم الإسلامي، تمنح الثقافة الجزائرية – والجزائر نفسها دولة ومجتمعا– أقوى عوامل النفوذ والتمدد الروحيين الثقافيين. لا شك أن صناعة هذا النفوذ - وهذه المكانة المتجددة - لم تكن لتتحقق وتصبح مكسبا تاريخيا غير قابل للفسخ لولا العمل التاريخي المليء بالجهاد بالصبر والتضحيات الذي نهض الشيخ التيجاني إلى إعلائه

متحديا كل الإكراهات التي حبل بها عصره في الجزائر وفي محيطه المغاربي والاسلامي.

قائمة المراجع :

محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الاسلامي، ط1 ،دار المعرفة الاسلامية، الاسكندرية 1991.

مفتاح (عبد الباقي)، أضواء على الشيخ التيجاني وأتباعه، ط1 ،دار الكتب العلمية، بيروت 2009 .

سعد الله (ابو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ط3، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1998.

الشريف الكتاني (ابي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس)، سلوة الانفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء 2004

سكيرج (الحاج احمد بن الحاج العياشي)، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، ط 1961 .

علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، ط 3، دار اكتب العلمية، بيروت 2018

ابراهيم الرياحي، الديوان، ت: محمد اليعلاوي وحمادي الساحلي،ط1، دار الغرب الاسلامي 1990

محمد العربي السائح التجاني، بغية المستفيد في شرح منية المريد، ط2، دار الجيل، بيروت 2005

محمد فتحا بن عبد الواحد السوسي النظيفي، الدرة الخريدة في شرح الياقوتة الفريدة، طبعة2، دار الفكر، بيروت 1984

العباس بن ابراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ط3، المطبعة الملكية، الرباط 1993